بركة خان وهولاكو

آخر أندادنا لهذا الجزء الأول، قد يكون أولهم غير معروف للكثيرين.. يعد هذا الرجل من أكثر المظلومين في صفحات التاريخ، بل زاد الأمر سوءًا أن ابن عمه، والذي عاث في الأرض دمارًا وفسادًا ودمَّر مدنًا، وأهلك الكثير من الأرواح وارتكب أكبر مجزرة ثقافية بتدمير مكتبة بغداد، يكون معروفًا عنه.. فتقريبًا لا يوجد أحد لم يسمع عن هولاكو، قائد المغول، وبطلهم الأسطوري وحفيد مؤسس دولتهم جنكيز خان، ولكن قلة قليلة فقط من سمعوا عن ابن عمه المسلم الذي حاربه طيلة سنوات حياته "بركة خان".

هو بركة خان بن جوجي بن جنكيز خان، وقد ورث منصب أبيه وأصبح زعيمًا للقبيلة الذهبية التي تعد أولى قبائل التتار إسلامًا وأكثرها تعاطفًا وتأدبًا مع المسلمين.

دخل بركة خان الإسلام في العام ستمائة وخمسين من الهجرة، وكان من قبل محبًا ومتأثرًا بالإسلام بسبب امرأة أبيه رسالة، والتقى بركة خان في مدينة نجارى، مع أحد علماء المسلمين، واسمه نجم الدين مختار الزاهدي، وكان بركة عائدًا لتوه من زيارة عاصمة المغول قرة قورم، وأخذ بركة في الاستفسار عن الإسلام من هذا العالم المسلم، وهو يجيبه بكل وضوح وسلاسة، فطلب بركة منه أن يؤلّف له رسالة تؤيد بالبراهين، رسالة الإسلام، وتوضح بطلان عقائد التتار والتثليث، وترد على المخالفين والمنكرين للإسلام، فألَّف الزاهدي الرسالة، ودخل بركة خان الإسلام، إثر قراءتها عن حب واقتناع وإخلاص ورغبة عارمة في نصرة هذا الدين.

لم يكن دخول بركة خان الإسلام كدخول آحاد الناس، بل دخل الإسلام بطلًا ملكًا سلطانًا لقبيلةٍ مغولية، والمغول وقتها هم الكابوس

المفزع للبشرية جمعاء وللمسلمين خاصة، لذلك جاءت أعمال هذا البطل العظيم على نفس المستوى الفائق من المسئولية والقيادة، وتحول هذا السلطان الوثني إلى جندي من أخلص جنود الإسلام، شديد الحب والتفاني في نصرة الدين وأهله، فضرب أروع الأمثلة في الولاء والبراء، في الوقت الذي كان هولاكو يخطط لتدمير ومحو الإسلام من الوجود إلى الا بدَّ.

بعدما أعلن بركة خان إسلامه، كان أول ما فعله أن أرسل ببيعته للخليفة العباسي المستعصم ببغداد، وهذا الإجراء رغم أنه بسيط وبه كثير من الشكلية، لأن خليفة المسلمين وقتها لم يكن له أي نفوذ حقيقي إلا على مساحةٍ ضيقةٍ من الأرض بعد استقلال العديد من الدول الصغير وتأسيس دول جديدة فيها كالدولة الطولونية، والدولة الفاطمية، والدولة الأيوبية، فقد أعطى صورةً واضحةً جليةً عن ولاء بركة خان لسلطان المسلمين وانضوائه تحت جماعته.

بعدما اعتلى بركة خان رئاسة القبيلة الذهبية، أخذ في إظهار شعائر الإسلام، فأكمل بناء مدينة سراي، وهي مدينة سراتوف الآن في روسيا على نهر الفولجا، وجعلها عاصمة القبيلة الذهبية، وبنى بها المساجد والحمامات ووسّعها جدًا، حتى صارت أكبر مدن العالم وقتها، وجعلها على السمت الإسلامي الخالص.

كان هولاكو في هذا الوقت يفكر في استكمال الهجوم على بلدان المسلمين، فحاول إقناع أخيه الأكبر مونكو خان بهذه الفكرة، وبالفعل وافق على الفكرة ورحب بالهجوم على باقي بلاد المسلمين، وبدأ هولاكو في الإعداد لذلك، وما أن وصلت الأخبار إلى بركة خان، حتى التهبت مشاعره وأسرع إلى أخيه باتو، وألح عليه في منع الهجوم على المسلمين، ولكنه لم يستطع ذلك، وبدأ الهجوم المغولي على أراضي المسلمين حتى سقطت بغداد.

استغل بركة خان، خروج الخان الأعظم مونكو لقتال بعض الخارجين عليه، ومعه أخوه قوبلاي خان، وتركْ أخيه الآخر، وارتقى بوكا مكانه لتسيير الأمور لحين عودته، استغل بركة خان وفاة مانغو في الطريق لإثارة الفتنة بين أرتق بوكا وقوبلاي، حيث اتفق الجند والأمراء على تولية قوبلاي، فأرسل بركة خان إلى أرتق بوكا بقوة عسكرية لمنازعة أخيه قوبلاي على منصب الخان الأعظم، وحرَّض أيضًا أسرة أوقطاي خان على مساعدة أرتق بوكا، ووقعت الحرب بينهما قبل معركة عين جالوت بقليل، ما جعل هولاكو يعود مسرعًا من الشام لفض النزاع وترك قيادة جيش المغول لزوج ابنته كتبغا.

عاد هولاكو إلى تبريز كي يكون قريبًا من اختيار الحاكم الأعظم الجديد للمغول الذي سيكون أخاه قوبلاي خان، التقى جيش المسلمين بجيش المغول في موقعة عين جالوت بفلسطين، وحمل المسلمون على المغول الذين كانوا تحت قيادة كتبغا حملةً صادقةً وقاتلوهم باستبسالٍ وشجاعةٍ من الفجر حتى منتصف النهار، فكتب الله لهم النصر وهُزِم المغول للمرة الرابعة، ومُحي جيشهم المهاجم عن بَكرة أبيه، بعد أن كانت القلوب قد يئست من النصر عليهم.

دخل بركة خان في حلفٍ مع المماليك الذين أبهروا العالم عندما انتصروا على المغول في موقعة عين جالوت، وكثرت المراسلات والاتصالات بينه وبين السلطان الظاهر بيبرس، وكان لها أثرٌ كبيرٌ في توجيهه لحربٍ ضد هولاكو، وبالفعل اتفق بركة خان وبيبرس على محاربة هولاكو، وكتب بركة خان رسالةٍ إلى بيبرس يقول له فيها: "قد علمت محبتي للإسلام، وعلمت ما فعل هولاكو بالمسلمين.. فاركب أنت من ناحية حتى آتيه أنا من الناحية الأخرى فنهزمه أو نخرجه من البلاد، وأعطيك جميع ما كان بيده من البلاد".

لم يكتف بركة خان بمناصرة المسلمين، فلقد انقلب حربًا ضروسًا على المغول الوثنيين عمومًا، وعلى هولاكو خصوصًا. لم ينس بركة خان ما فعله هولاكو بالخلافة العباسية أبدًا عندما اكتسح بجحافله بغداد مدمرًا كل ما في طريقه، في أحد أكبر المجازر البشرية في التاريخ، فقد حاول بركة خان بشتى الوسائل أن يوقف هذا المد الجارف الذي ينذر بمحو الإسلام من الوجود، ولكن لأن معظم جنوده كانوا لا يزالون على الوثنية، فقد رفضوا الانصياع لأمره بمحاربة هولاكو؛ لأنهم بذلك سيخالفون الخان الأعظم للمغول، والذي قد وافق على الهجوم على بغداد.

أخذ بركة خان في اختلاق الذرائع والحجج لإشعال الحرب ضد هولاكو ووجد ضالته في مسألة الغنائم، حيث كان من تقاليد جنكيز خان، أن أسرة جوجي لها ثلث الغنائم التي يحصل عليها المغول جميعًا في أي معارك يخوضونها، وبالقطع لم تكن الغنائم دافعًا لبركة خان، فأرسل بركة رسلًا من طرفه وأمرهم أن يشتدوا ويغلظوا على هولاكو في السؤال، وبالفعل نجحت الحيلة واستشاط هولاكو غضبًا وقتل رسل بركة خان وسير جيشًا لمحاربته، فانهزم جيش هولاكو شر هزيمة، فعاود الهجوم مرةً أخرى بجيشٍ أكبر، فانهزم جيش بركة خان وكان يقوده أحد قواده واسمه نوغاي، فأراد هولاكو أن يجهز بالكلية على بركة خان، فأرسل جيشًا جرارًا فيه معظم جنوده يقودهم ابنه أباقا، فخرج لهم بركة خان بنفسه على رأس الجيش، ومزق جيش هولاكو شر تمزيق في منطقة القوقاز، ولم ينج منهم سوى القليل.

أما هولاكو فوجد أن كل البلايا والهزائم التي حاقت به وبالمغول جميعًا كان سببها بركة خان، فاشتد غيظه وحقده على بركة خان، وحاول محاربته عدة مرات، ولكنه هزم شر هزيمة، ما أشعل الغيظ في قلبه حتى وصلت نيران غيظه إلى عقله وجسده، فأصيب بجُلطة في

المخ بعد وصوله خبر هزيمة ولده أباقا أمام بركة خان، وظل يعاني من الصرع حتى هلك في عام 636 من الهجرة، فانتقم بركة خان للإسلام والمسلمين من هذا المجرم الطاغية الذي دمَّر دولة الخلافة الإسلامية وسفك دم الملايين من المسلمين، ودمر حضارةً استغرق بناؤها العديد والعديد من السنوات.

بعد هلاك الطاغية هولاكو من شدة الغيظ والحقد على ما جرى له على يد بركة خان، ورث مكانه ابنه أباقا وورث عنه أيضًا حقده وحسده على بركة خان، خاصةً أن بركة قد هزمه هزيمةً كبيرة، لذلك كانت محاربة بركة هي أولى خطوات وقرارات أباقا بن هولاكو، وبالفعل أعد أباقا جيشًا جرارًا لمحاربة عدوه، وأرسل بركة أولًا قائده نوغاي، ولكنه هُزم وأصيب بسهمٍ في عينه، وكان بركة خان يحب نوغاي لإسلامه وجهاده معه في كل موطن، فخرج بركة بنفسه للقاء أباقا وفي نيته محاربة عدو الإسلام وإزالة هذا الفرع الخبيث من شجرة المغول، التي بدأت تتحول للإسلام شيئًا فشيئًا، ولم يبق منهم على الوثنية غير القليل فقط.

لم يلبث أن قام بركة خان على رأس جيش كثيف وتوجّه نحو تفليس لمواجهة أباقا، لكنه توفي في الطريق في العام 665 من الهجرة.

رحم الله رجلًا قدَّم الكثير والكثير إلى الإسلام، وما زال مظلومًا على صفحات التاريخ حتى كتابة تلك الكلمات، بينما يُمجَّد نده في صفحاتٍ أخرى.